المسكن التقليدي في تلمسان خلال العهد الزياني
دراسة تاريخية أثرية

د. مهتاري المولودة زرقة فائزة

أستاذة محاضرة
قسم علم الآثار
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

يحتل المنزل مكانة مُهِمَّة في الحياة الاجتماعية فهو يمثل إرثًا حضاريًا وشاهدًا معماريًا على حِقب تاريخية مختلفة منها السعيدة والحزينة، كما يعتبر جزءًا لا يتجزأ من المسار الإنساني، التاريخي والمعماري للشعوب، وعلى الرغم من هذه الأهمية التي يكتسبها المنزل، يبقى يعاني من الإهمال والتجاهل لقيمته الاجتماعية والأثرية، وقد لاحظنا هذا من خلال المعاينة اليومية لمنازل مدينة تلمسان، خاصة بالمدينة العتيقة التي تتنفس أحياءها عبق التاريخ، وعِطرَ أزمنة مزدهرة ومُشرقة لهذه الحضارة الإسلامية في عصورها المزدهرة. وتعتبر الفترة الزيانية من أبهى الفترات في تاريخ تلمسان فعلى الرغم من كل المآسي التي وقعت في تلك الفترة، خلفت لنا هذه الأخيرة معالم رائعة من حيث الشكل والمضمون، ولعل نقطة قوة هذه الحضارة هو حسن تذوقها للفنون وحسن تصنيعها لهم، وقد تعرضنا من خلال هذا العمل إلى بعض العينات من المنازل العتيقة والتي لا يزال البعض منها يقف شاهدًا على عبقرية أجدادنا وحسن استيعابهم للفنون. تناولنا ثلاث منازل: منزل سيدي الحباك، منزل محمد ديب، وقد كانا عَلمين مهمين في تلمسان، ومنزل لاغا، وقد أختير كعينة للدراسة نظرًا لحفاظه على طابعه الأصلي والأصيل.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢٠ أكتوبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ ديسمبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

البيت التلمساني، المنازل الزيانية، العمارة الإسلامية، بيوت الخزيرة، المساكن المشتركة

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مهتاري المولودة زرقة فائزة. "المسكن التقليدي في تلمسان خلال العهد الزياني: دراسة تاريخية أثرية".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٩٣ – ٩٩ .

"بقدر ما يهمنا الإطار التاريخي والمعماري لهذه المنشأة، بقدر ما يهمنا أكثر دوره الأساسي، ألا وهو اجتماعنا في صحنه وقضاء أوقات حميمية فيه"

محمد ديب

مُقَدِّمَةْ

يحتل المنزل مكانة مُهِمَّة في الحياة الاجتماعية فهو يمثل إرثاً حضارياً وشاهداً معمارياً على حِقب تاريخية مختلفة منها السعيدة والحزينة، كما يعتبر جزءًا لا يتجزأ من المسار الإنساني، التاريخي والمعماري للشعوب، وبالرغم من هذه الأهمية التي يكتسبها المنزل، يبقى يعاني من الإهمال والتجاهل لقيمته الاجتماعية والأثرية، وقد لاحظنا هذا من خلال المعاينة اليومية لمنازل مدينة تلمسان، خاصة بالمدينة العتيقة التي تتنفس أحياءها عبق التاريخ، وعِطرَ أزمنة مزدهرة ومُشرقة لهذه الحضارة الإسلامية في عصورها المزدهرة. دراستنا هذه ستحاولُ إلقاء الضوء على الواقع الأثري لهذه المعالم، بعد أن نتعرض لتاريخ المنزل وأهم عناصره المعمارية التي لا تزال تحتفظ بها مدينة تلمسان. فالوحدة السكنية في المفهوم الإسلامي لا تقتصر على جانب توفير الاحتياجات الوظيفية الاجتماعية للأسرة، بل توفر الراحة السكنية لأصحابها وبذلك يتداخل الجانب التشكيلي والجمالي لإنتاج قيمة حضارية معلومة.

تعتبر الفترة الزيانية من أبهى الفترات في تاريخ تلمسان فبالرغم من كل المآسي التي وقعت في تلك الفترة، خلفت لنا هذه الأخيرة معالم رائعة من حيث الشكل والمضمون، ولعل نقطة قوة هذه الحضارة هو حسن تذوقها للفنون وحسن تصنيعها لهم، ولعل

المنشآت المشيدة في تلك الفترة من مساجد وأضرحة ومدارس لخير دليل على ذلك، وبما أن المنازل عنصر معماري مهم، تراءى لنا أن نتعرض له بالدراسة والتمحيص فهذا النموذج الزياني لا يزال متواجدًا يصارع عوامل الزمن، ويستغيث من أجل ترميمه والعناية به.

أولاً: المنزل

إن الحديث عن المسكن بمدينة تلمسان في العهد الزياني يتطلب نصوصًا تاريخية ووثائق ويتطلب حفريات وتنقيبات ميدانية ولكنها لأسف غير متوفرة. ولكن وبالاستعانة بكتب الخطط الخاصة بمدن مغربية كفاس ومكناس وغيرها، تسمح لنا بتكوين فكرة عن المسكن وأنواعه في مدينة تلمسان لأن العمارة الإسلامية، متشابهة تحكمها ضوابط مشتركة، تجعلها ذات سمات تكاد تكون واحدة، ولعل أهم ما يميز تلمسان في العهد الزياني، كغيرها من الحواضر الكبيرة، في بلاد المغرب، هو عدم وجود أحياء سكنية خاصة بالفقراء وأخرى خاصة بالأغنياء، وإنما كانت دور الأغنياء ومنازلهم إلى جانب مساكن الفقراء.[١]

لم تكن المنازل تختلف من حيث الشكل ونمط البناء عن المنازل والقصور في المغرب الأقصى، وإفريقية المغربية الأندلسية وتخضع لضوابط ومعالم المدن الإسلامية وتتشابه فيما بينها من حيث التصميم والزخرفة التي تطورت كثيرًا في العهد الزياني، بسبب التلاقح المباشر للحضارة الإسلامية بصفة عامة، كما يمكننا أن نقف على بعض الملامح العمرانية للمنزل التلمساني في العهد الزياني. كان نمط المنزل والقصر يخضع للمستوى الاجتماعي والمالي للأسرة التلمسانية.[٢] والمنزل التلمساني مربع الشكل غالبًا لا يكتسي أي مظهر جمالي من الخارج. أما من الداخل فهو يشتمل على كثير من مظاهر الزينة والزخرفة وكانت منازل الأغنياء تكسى بالزليج في الجدران وتبلط الأرض بالرخام ويكون المطبخ والدرج في زاوية المنزل.[٣]

يتميز البيت التلمساني في العصر الوسيط، بالغرفة الواسعة يزين سقفه بالخشب المنقوش لدى أصحاب الجاه والمال وتحيط بسطحه جدران عالية ينشر فيه الغسيل وتجفف فيه الفواكه. أما الأسرة الفقيرة فلا تملك منزلاً فخمًا بل منزلها بسيط لا يزيد عن الدور الأرضي يبنى بأدوات بناء بسيطة. وأما المنازل الخارجة عن أسوار المدينة فكانت تبعد عن بعضها ولها مساحات واسعة مزودة بإسطبلات الخيل والمواشي.[٤] وذكرت بعض المصادر الزيانية أن الرخاء الاقتصادي والتطور الحضاري، جعل أهل تلمسان يتأنقون في المسكن والملبس.[٥]

١/١- مفهوم المسكن:

تشتق كلمة مسكن من فعل سكن وهو السكون والهُدُوء والسكينة هي الطمأنينة، ويستعمل في الاستيطان نحو سكن فلان مكان كذا أي استوطنه.[٦] والسَّكَنُ والمَسْكَنُ هو المنزلُ والبيت. والسّكْنُ أهْلُ الدار، والسَّكْنَى: أن يسْكُنَ الرَجُلُ موضعًا بلا كراء.[٧]

كما ذكر مصطلح السكن في القرآن في سورة الأعراف: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا"[٨]. وقد استعمل القرآن الكريم لفظ البيوت للدلالة كذلك على المنزل الذي يسكنه الإنسان أو الكعبة أو بيت الله الحرام في مكة المكرّمة، أو مساكن بعض الحشرات كالنحل والعنكبوت، أمَّا لفظ الدّار فقد استعمل للدلالة على الدار الآخرة، وقد جاءت لفظة سكن في صور مادية مجازية كتابة ودلالة على فعلها وهو الاحتواء والإغشاءُ والشمْل للجسد والنفس أي للمادة والروح".[٩] لذلك كان المسكن ولا يزال من أهم العناصر المعمارية للإنسان فهو مستقره ومصدر طمأنينتِهِ.

ثانيًا: الأنماط الرئيسية لأشكال المسكن

اختلفت أنواع مساكن الإنسان، فمنذ القدم عاش الإنسان في الكهوف والتجاويف الصخرية شبه المسقوفة،[١٠] وكانت هذه الكهوف مستودعًا لأسراره، فقد خلّد فيها وبواسطة رسوماته الصخرية، ما كان يختلج في صدره من أفراحٍ وأحزانٍ، كما خلّد على جدرانها أهم أحداثه اليومية وكذا الأخطار الطبيعية والحيوانية التي كان يهابها ويتقي شرّها. كما ظهرت منذ العصر الحجري القديم الأعلى مساكن مبنيّة من الأخشاب والطين، كما اشتغل البعض بانخفاض الأرض في صورة حفر طبيعية ليبنى فوقها مسكن، وسميت ببيوت الحفر، كما ظهرت البيوت المبنيّة من الطين المقوى والطوب والحجارة.[١١] كما عرف الإنسان ما يسمى بالأكواخ، وهي تلك التي تتخذ صورة قبة من الأغصان والأوراق والأعشاب مقامة فوق إطار من الخشب وأغلبية الأكواخ قمعية تفاديًا لتراكم مياه الأمطار، وأحيانًا تقام جدران الأكواخ من الحجارة ويقام فوقها السطح المنحدر.[١٢]

١/٢- الخيام:

وهي من أهم ميزات البدو الرّحل وهي تصنع من شعر أو جلود الحيوانات، كالإبل وصوف الغنم وشعر الماعز، ثم ترفع من وسطها بعمود خشبي يضمن لها السطح المنحدر، ثم تشد أطرافها إلى الأرض حتى لا تقتلعها الرياح. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النمط من المساكن فقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.[١٣]

٢/٢- المساكن المشتركة:

وهو نوع قديم، وقد ظهر في الحضارة المصرية القديمة، كانت المساكن الشعبية المبنية في حي خاص يفصله جدار عن حي الأغنياء، وتقتصر على ثلاث أو أربع غرف. وقد تطور النموذج المصري إلى مساكن فردية تبنى بطريقة بسيطة، وكانت من الطوب والطين والقليل من الاسمنت، وكانت عبارة عن مساحة صغيرة مقسّمة إلى قسمان سفلي يحتوي على فرن طبيعي وفناء صغير، وعلوي نصعد إليه بواسطة سلم من الأدراج البسيطة، لنجد بعض

الغرف الصغيرة والضيقة، وهذا ما يُعرف في مصر بـ "السطوح" ويعتبر النموذج المصري من أقدم أنواع البيوت.[١٤] أما في الحيرة فقد أخذ العرب أصول فن العمارة عن طريق الفرس بحكم مُجاورتهم وتبعيتهم لهم، ولكنهم طوّروا نظام العمارة عندهم تطويرًا أبعده عن أصوله الأولى، كما اشتهرت الحيرة بقصورها مثل قصري (الخورنق) والتي ترجع إلى الفارسية (خورن كاه) ما معناه موضع الأكل والشرب.[١٥]

٣/٢- المساكن المنحوتة في الجبال:

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النمط من المساكن في سورة الأعراف: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾.[١٦]

ثالثا: المسكن في العمارة الإسلامية

لقد كان تصميم المسكن في العمارة الإسلامية مرتبط بالعقيدة قبل تشكيله، كمراعاة عدم التطاول في البنيان والالتزام بحرمة الجار، وإتباع منهج الوسطية في اقتصاديات البناء من عدم الإسراف أو التقصير في استعمال الزخارف والتجهيزات، وقد ظهر ذلك واحترم في العصور الأولى للدعوة المحمدية وخاف المسلمون الشذوذ عن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويشير عبد الرحمن بن خلدون لذلك قائلاً: "فكان الدين أول الأمر مانعًا من المغالاة في البنيان والإسراف فيه في غير المقصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل، فقال: "افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطالوا في البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة".[١٧] لكن المسلمين ابتعدوا عن التقشف في البناء كلما بعد الزمن بهم عن عهد النبوة، وذلك راجع لاحتكاكهم بالشعوب والأمم المجاورة، ولاغتناء الدولة الإسلامية، ومحاولة إظهار آثار هذا الغنى في الإبداع في البناء حتى يضاهي المعالم الفارسية والبيزنطية.

وقد أشار عبد الرحمن بن خلدون إلى هذا التطور في تصميم المباني: "فلما بعد العهد بالدين والتحرج في أمثال هذه المقاصد، وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف فحينئذ شيّدوا المباني والمصانع".[١٨] وقد اهتم المعماري المسلم في تصميم المنزل أو المسكن بقيم الشريعة الإسلامية، والمناحي الاجتماعية والنفسية للإنسان في تخطيط المسكن إذ يعدّ هذا الأخير وحدة اجتماعية لا ينفصل فيها البناء عن الأسرة التي تقيم فيه فقيّمها وعاداتها هي التي تُحدّد الفراغ الداخلي للمسكن.

١/٣- أهم عناصر ومميزات المسكن في الحضارة الإسلامية:

(١/٣) ١- المدخل:

ويطلق عليه أيضًا مصطلح المجاز وهو عبارة عن ممر يكون بوجه عام مُستطيل الشكل مُستقيمًا وغالبًا ما يكون منكسرًا يؤدي إلى الفناء، ويظهر هذا العنصر في تلمسان على هيئة حرف (L) اللاتيني فيكون طويلاً ثم يدور إلى اليسار ليولج بالداخل إلى الفناء، ويحتوي المدخل بهذه المدينة على (دكانة) وهي عبارة عن فتحة جدارية يستريح فيها الإنسان الغريب عن المنزل حتى يؤخذ له طريق للدخول.

(١/٣) ٢- الفناء (الصحن):

هو عنصر هام وهو مركز المنزل أو قلب المسكن، وهو الفراغ المكشوف، ويعتبر الصحن قديمًا بقدم العمارة الإسلامية، فقد وجد في العصر الفرعوني والسومري، واليوناني، كما ظهر في العصر الإسلامي في عهد الرسول (ﷺ) في منزله ومسجده في المدينة المنورة سنة 622م، كما وجدناه مع تطور العمارة الإسلامية، ولعل أهم ما يميز الصحن هو انفتاحه على السماء، حتى يصبح فضاءً مفتوحًا يبعث على الارتياح وكما يقول المعماري المصري "حسن فتحي": "فالفناء هو قلب المبنى وهو الذي يعبّر عن القلب في جسم الإنسان حيث تطل عليه الحجرات من جميع جهاته بألوانها وزخارفها حول الفتحات والأبواب، ولقد طوّر المعماري المسلم الفناء إلى أن تحوّل إلى حديقة فيحاء تفجّرت فيها المياه الجارية بحيث أصبح الفناء فردوسًا أرضيًا".[١٩]

كما يشير الكاتب محمد ديب الذي وإن نَحى منحًا بعيدًا عن العمارة، وأشار إلى الدور الإنساني للصحن فيقول: "يعتبر الصحن مسرحًا لحياة الأحداث اليومية، فهو إن حصرنا دوره في كونه مركزًا للمنزل أخللنا به كثيرًا، فالصحن هو المكان البسيط والذي عادة ما تتوسطه شجرة الليمون أو شجرة العنب، هو مكان رائع للحميمية العائلية والسهرات الرائعة، كما يعتبر مسرحًا للمشادات والملاسنات بين مختلف النسوة، ولكنه يبقى مكانًا فريدًا من نوعه، لا يعوّض هواءه وعبق قهوته بأي شيء في الوجود".[٢٠] كما تجدر الإشارة إلى؛ أن تخطيط المنازل التقليدية في تلمسان لا يجعل لها نوافذ تطل على الخارج بغرض الحفاظ على الحرمة والخصوصية العائلية، مما يجعل منه المتنفس الوحيد للمنزل. كما كانت تستعمله جدّاتنا وأمهاتنا في إنجاز أنشطتهم اليومية كالتنظيف، وغزل الصوف وقد يحتوي على صهريج من الماء.

(١/٣) ٣- الإيوان:

وهو بناء له ثلاثة جدران، يعلوه سقف يكون مكشوفًا من واجهته الأمامية ويمثل هذا العنصر محطة انتقال بين الغرف الجانبية إلى فضاء عائلي خاص وبين الفناء الوسطى كفضاء عائلي عام، ويكون الإيوان عادة مربع الشكل وعقدته بيضوية وواجهته على شكل قوس مذبب، وقد يكثر عدد الإيوانات في المنزل الواحد.[٢١]

(١/٣) ٤- الأروقة:

تكون الأروقة والغرف في الطابق الأرضي وقد تحيط بالصحن من الجوانب الأربعة، وقد ظهرت هذه الأروقة في بيوت العباسيين وقصورهم في سامراء. وللأروقة دور هام في حماية سكان المنزل من حرارة الشمس، والأمطار في فصل الشتاء.

(١/٣) ٥- السرداب (القبو):

يقام السرداب عادة تحت مستوى أرضية الدار أي بمستوى منخفض عنه، وقد ابتكره المعماري المسلم للتغلب على مواجهة الحر الشديد في فصل الصيف، كما استعملته العائلات كثيرًا لحفظ المأكولات من التلف في فصلي الشتاء والصيف ويسمى في تلمسان ببيت العولة أو المخزون.

(١/٣) ٦- الرواشن والأجنحة:

يطلق مصطلح الروشن وهو فارسي بما معناه الضوء ويعرف بالشرفة أو البالكون وهو مصطلح فرنسي (Balcon)، ويعرف عند البغداديين والبصريين باسم الشناشيل.[٢٢]

(١/٣) ٧- الأعمدة:

تستخدم الأعمدة كعناصر حاملة للسقف في القاعات والغرف الواسعة، وتعلوها التيجان.

(١/٣) ٨- التيجان:

اقتبس المعماري المسلم، عن التيجان المصرية واليونانية والرومانية، ثم طوّر في صناعتها "إن التيجان التي ظهرت في العصر الإسلامي لم تكن نسخة طبق الأصل من مثيلاتها في العصور القديمة بل طوّرت حتى أصبحت فنًا جديدًا.[٢٣] كما توجد عناصر معمارية أخرى كالنوافذ والفتحات والأبواب.

رابعًا: خصائص المسكن التقليدي في مدينة تلمسان

قبل الحديث عن خصائص المسكن التقليدي بمدينة تلمسان لا بدَّ من الإشارة إلى ميّزة مهمّة ألا وهي تموقع هذه المنازل في مدينة تلمسان، وهي تقع في المدينة القديمة وأحياءها الضيقة وأزقتها العتيقة، كدرب "حلاوة" ودرب "ملالة" ودرب "مسوفة"، درب "سلسلة"،... وغيرهم كثير. ويعتبر تخطيط الدروب والأزقة في مدينة تلمسان على غرار تخطيط مدينة فاس بالمغرب.

١/٤- موقع المساكن:

تقع المساكن التقليدية في تلمسان بالدروب الضيقة بعيدةً عن ضوضاء المدينة، ولعل اختيار هذه الدروب التي كثيرًا ما تكون مغلقة لا تمرر إلى درب آخر، يرجع للحفاظ على الحرمة والخصوصية للعائلات ويغلب على هذه الدروب الضيق إذ لا تستطيع الدواب في الكثير من الأحيان الولوج إلى الدرب، كما لا تحتوي هذه المساكن على نوافذ مطلّة على الخارج.

٢/٤- المداخل:

تتميّز المداخل في هذه المنازل بميزتين غالبتين: الأولى: هو المدخل المنكسر، وهو نموذج شبه عام بهذه المنازل. الثانية: هو انخفاض المداخل إذ قد يضطر الداخل إليها إلى الانحناء من أجل الدخول.

٣/٤- الصحن (وسط الدار):

يوجد الصحن أو وسط الدار في أغلبية مساكن مدينة تلمسان، وقد يظهر غنيًا من حيث نوعية الزليج أو البلاطات الخزفية، وعادة ما تتوسطه شجرة في الوسط، وقد تمثل المركز نافورة ماء وقد تبقى هذه الأخيرة حكرًا على الطبقة الثرية للمدينة. وقد يظهر مستديرًا أو مستطيلاً، وكبيرًا أو صغيرًا ولكن دوره يبقى نفسه، وقد سبق الحديث عنه آنفًا.

٤/٤- الأروقة:

وقد سبق الحديث عنها، وهي موجودة في كل المنازل العتيقة والتقليدية في تلمسان.

٥/٤- الغرف (أو المساكن):

إذ نُسمي الغرف في تلمسان بـ "المسكن" وتتميز هذه الأخيرة بنوعها المستطيل إذ عادة ما تكون ضيقة وطويلة وتحتوي المساكن أو الغرف على نوافذ تطل على الصحن، وكان أجدادنا في الماضي يستعملون سريرًا مرتفعًا للنوم ويُسمَّى بـ "السرير" وهو يستعمل للنوم ليلاً ولحفظ فراش الغرفة نهارًا وتتميز أسقف هذه الغرف بعلوها الكبير، فهي عادة ما تكون شديدة البرودة شتاءً ولطيفة في الصيف، وتغطى بما يعرف عندنا بالخشبة وعادة ما يكون السقف هرمي ينتهي بمستطيل في القمّة ومغطّى بالجبس.

٦/٤- مرافق المساكن:

لا تكاد تخلو دار قديمة في تلمسان من الصهريج، وهو عبارة عن مستطيل أو مربع يوضع في المطبخ أو الصحن لحفظ الماء وغسل الملابس والفواكه وتبريدها في فصل الصيف، ويصنع عادةً من الزليج الأبيض أو الأزرق الشفاف، أو قد نجد البئر، وتحتوي الكثير من المنازل في تلمسان على الآبار نظرًا لغنى المدينة بالماء في الماضي، إلا أن الكثير من هذه الأخيرة قد جفت أو طمست لما مسّ المدينة من جفاف في السنوات الأخيرة.

٧/٤- المخازن أو بيوت الذخيرة:

لا يكاد يخلو منزل أو مسكن تقليدي في تلمسان من المخزن أو بيت العولة أين كانت تحفظ جرار الزيتون والزيت والحبوب ومئونة فصل الشتاء والصيف، وتمتاز هذه المخازن بدفئها في فصل الشتاء وبرودتها في فصل الصيف. لعل من الميزات الهامة لهذه المنازل هو غياب الزخارف فيها وبساطة العناصر المعمارية، وقد يرجع ذلك إلى: لم يكن لسكان مدينة تلمسان في العصر الوسيط منازل فاخرة فقد كانت كلها متشابهة ولم يريدوا الإسراف في الزخرفة فقد كانوا بسطاء يعشقون مساكنًا للراحة لا للتباهي. كما كان هؤلاء ينتهجون هذه البساطة حتى لا يحسّ الفقير منهم بالفارق الاجتماعي، وإن ظهرت بعض المنازل بزليج جميل أو نافورة من الرخام إلا أنهم كانوا لا يستعملون إلا مواد بسيطة للبناء كالحجارة والطين.

لقد كان المسكن ولا يزال وحدة اجتماعية ونفسية قبل أن يكون وحدة معمارية، وقد واكب هذا العنصر المعماري الهام حضارات مختلفة، وإن اختلفت طرزه ومرافقه العامة، إلا أنه يبقى شاهدًا على عظمة أجدادنا، والمسكن التقليدي في تلمسان في العصر الوسيط كان له أهمية كبرى، وتموقعه ضمن الدروب الضيقة، كان بغرض الحفاظ على حرمة الحريم وعلى حركة تنقلهم براحة وطمأنينة.

خامسًا: دراسة لعينات من المنازل في تلمسان

١/٥- منزل سيدي الحباك (انظر: المخطط رقم ١)

يتموقع هذا المنزل في درب السنسلة بالتحديد في قاع الدرب بالمكان المسمى راس السبا (انظر: اللوحة رقم١). يقع المنزل بدرب السنسلة بالقرب من ضريح سيدي الحباك يحده من الجهة الشمالية والغربية زقاق ومن الجهة الجنوبية منزل رقم خمسة وعشرون، أما من الجهة الشرقية فمنازل سكنية.

التخطيط: نلج إلى المنزل من خلال زقاق ضيق وهو يتكون من:

الطابق الأرضي: حيث نجد مدخله الأصلي مقابل باب الضريح لكنه قد سُدَّ، وفتح باب آخر من نفس الواجهة ويتألف من باب خشبي ذي مصراعين في أقصى الجهة الغربية، فتح على ممر منكسر مقبب كما هو الحال منكسر مقبب كما هو الحال عليه في المنازل الإسلامية، يقودنا إلى صحن مكشوف مربع الشكل، يُحيط رواق من الجهات الأربعة بسقف مقبب تتخلله دعامات تحمل عقود، منها النصف الدائرية والمتجاوزة وقد فتحت بالرواق أبواب ذات مصراعين بعلوي كبير يتم الولوج من خلالها إلى ثلاثة غرف ومخزن، كما نجد في أقصى الزاوية الشرقية بئر تحاذيه سلالم تؤدي إلى:

الطابق العلوي: يتألف من ثلاثة غرف مستطيلة الشكل تنفتح على رواق يطل على الصحن بواسطة درابزين من الحديد، إلى جانب وجود فضاء مكشوف (السطح) في الناحية الجنوبية الغربية.

مواد البناء: الآجر الممتلئ بالجدران، الخشب في السقف والأبواب والنوافذ والحديد في الدرابيز.

الصيانة والترميم: من خلال المعاينة الميدانية يتبين لنا أن المنزل قد عرف تغيرات من قبل مالكيه (عائلة بارودي) وهذا ما يؤكده المدخل المستحدث والسقف اليوم، كما أنه يعاني من تأثير عوادي الزمن إذ أن الطابق العلوي آيل للسقوط.

٢/٥- منزل محمد ديب:

العنوان: شارع معركة فلاوسن، يحاذي مسجد أولاد الإمام.

التسمية: دار السبيطار نسبة للرواية الكبيرة لمحمد ديب (الدار الكبيرة).

يقع المنزل بحي أولاد الإمام، يحده من الجهة الشمالية الغربية مسجد أولاد الإمام ومن الجهة الشمالية الشرقية زقاق ومن الجهة الجنوبية محلات تجارية. يتكون المنزل من طابق أرضي وطابق علوي (انظر: اللوحتين رقم ٢).

لمنزل محمد ديب مدخل مستطيل الشكل، تعلوه ظلة مزينة بالقرميد الأخضر ليتضمن باب خشبي يفتح على ممر مستطيل منكسر يمينًا، يوصل إلى الصحن المكشوف المربع الشكل الذي يحيط به من الجهات الأربعة رواق ذي سقف مقبى مستند على أعمدة تحف بالصحن أين يفتح بالرواق من جهاته الثلاثة، أبواب بمصراعين على غرف مستطيلة الشكل. كما يخلو الطابق الأرضي من عنصر أساسي في معظم المنازل التقليدية في تلمسان ألا وهو البئر.

نصعد إلى الطابق العلوي من خلال الرواق الشرقي بواسطة سلالم. يحتوي الطابق العلوي على دربوز محدود بالسياج المعدني الذي يطل منه على الطابق الأرضي وهو يتضمن ثلاثة غرف مستطيلة كما هو في الطابق الأرضي.

مواد البناء: الآجر، الخشب، الحجارة، المعدن والزجاج.

شهد المنزل مجموعة من الترميمات، كانت آخرها سنة 2011 خلال فعاليات تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، وقد طغت الترميمات على المنزل وطمست البصمة الأصلية للمنزل، بفعل الإسمنت المسلّح على الجدران التي تصدّعت إلى درجة كبيرة.

٣/٥- منزل الآغا عبد الحميد بالرحيبة:

يقع هذا المنزل بالتجمع السكاني الكائن بالرحيبة أو درب سيدي الوزان. والرحيبة تصغير للرحبة وتعني تجمع الخيل أو الجياد نسبة إلى الحي المجاور له باب الجياد، ويقابل الدار في الجهة الشمالية الشرقية مسجد "سيدي الوزان" الذي شيّد في القرن الثامن الهجري".[٢٤] تعلو باب المنزل أسكوفة أفقية، الباب الخشبي، أما المدخل فمنكسر، فناء المسكن مستطيل الشكل،/ تحيط به خمس غرف متباينة في مساحتها. في الزاوية الشمالية الشرقية للفناء توجد حنفية وأسفلها صهريج صغير مزين ببلاطات من الخزف (انظر: اللوحة رقم ٣).

نصعد السلم المؤدي إلى السطح (أنظر اللوحة٤) ويعلو مدخل هذا السلم عقد صغير حدودي (أنظر اللوحة٥)، يوجد في الجهة الشرقية للسطح غرفة مستطيلة الشكل وأغلب الظن أنها كانت تستعمل للأشغال اليومية، أو لتخزين بعض المأكولات. حاولنا أن نتعرف على مختلف العينات الموزعة بين أزقة تلمسان القديمة، والمهم أن معظم هذه المنازل يعاني من التصدع والإهمال، كما أن الترميمات التي أجريت عليها إما المختصة أو غير المتخصصة، قد محت البصمة الأصيلة للمنزل وجعلت منها نسخة سيئة عن المنازل الحديثة. منزل لاغا، لا يزال في حالة حسنة لأن ساكنيه لا يزالون حريصين على نظافته وجماله. واقع المنازل التقليدية في تلمسان مثير للجدل لأن الكثير منها متصدع وتكاد المساكن التقليدية تستغيث من الواقع المزري التي تعاني منه.

خاتمة

بعد التعرض لتاريخ المنزل في الحضارة الإسلامية بإسهاب والمعاينة الميدانية لهذه المنشآت في تلمسان نستطيع أن نجزم بمدى اهتراء حالة هذه المنازل ومدى تصدعها بعوامل كثيرة وعلى رأسها الرطوبة المفرطة والتي أسهمت في تشقق الجدران وحتى سقوط أجزاء منها، وكذا عدم اهتمام السكان بمنازلهم وهجرانها لسبب أو لآخر فقد كان أرباب الأسر حريصين عليها، ولكن بعد وفاتهم فضل الكثير من أبنائهم السكن في شقق عصرية مهملين إرث الآباء والأجداد، أو بيعها بثمن بخس للتخلص منها، كما تعاني هذه المنازل

من سوء الترميمات التي مسحت بصمتها التاريخية الأصيلة وجعلت منها منشآت لا هوية لها ولا ماض.

تعتبر المنازل الزيانية المتواجدة في أحياء مدينة تلمسان وأزقتها القديمة من النماذج الفريدة من نوعها، فبعد هذه الفترة لم نجد نماذج بمثل هذه الجودة في البناء و تى الفترة العثمانية لم تبرز منازل بالجودة التي سبقتها بها مثيلاتها الزيانية، ومع ذلك أصبحت هذه المعالم على غرار المساجد ومساجد الأحياء والأضرحة تتهاوى إما من التجاهل لقيمتها، أو للترميمات الخاطئة والتي تحرمها من البصمة الأصلية وتجعلها نسخة سيئة من معلم عتيق. وختام القول؛ أننا نناشد الهيئات المعنية بالوقوف على هذا الإرث الحضاري حتى لا يمحى من الذاكرة وحتى يبقى واقفًا وشاهدًا على عظمة أجدادنا وحسن تذوقهم للفنون.

الملاحق:

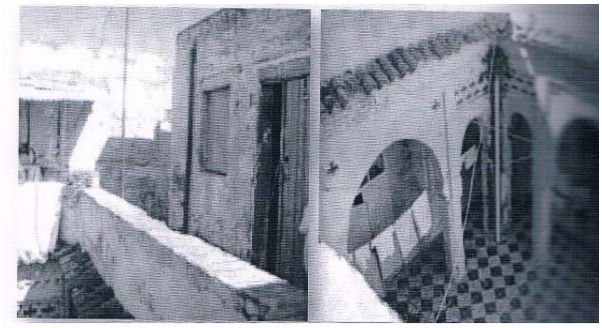

لوحة رقم 01: الطابق الأرضي والعلوي لدار المقري

لوحة رقم 02: منظر جانبي والصحن لبيت محمد ديب

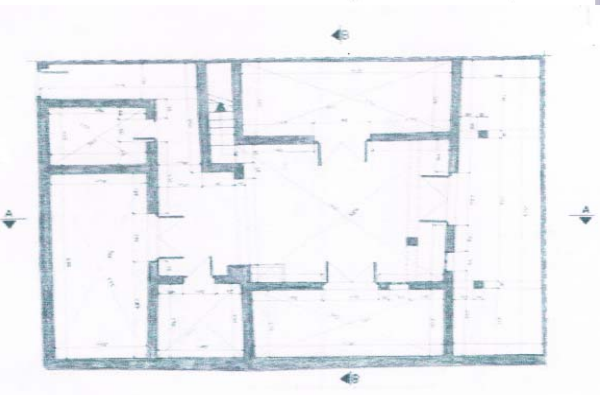

لوحة رقم 03: مخطط الطابق الأرضي لدار لاغا

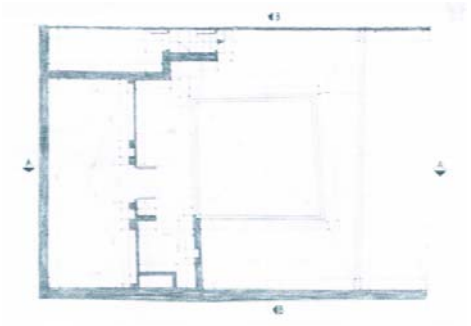

لوحة رقم 04: مخطط السطح لدار لاغا

لوحة رقم 05: المدخل الرئيسي لدار لاغا

لوحة رقم 06: صحن دار لاغا

لوحة رقم 07: صهريج الماء بدار لاغا

لوحة رقم 08: منظر لسطح دار لاغا

الهَوامِشُ:

(١) ابن الزيات الشاذلي: **التشوق في رجال التصوف**، ص: 405 – 406، قدور أحمد: **المدن الموحدية وعلاقتها بالإقليم (دراسة اجتماعية اقتصادية)**، د.د.ع في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988، ج2، ص435 436.

(٢) عبد العزيز فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)**، ج1، الجزائر، 2002، ص 119.

(٣) عبد العزيز فيلالي: نفسه، ص 120.

(٤) ابن مريم: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء من تلمسان**، ص 269-270.

(٥) ابن مريم: نفسه، ص 270.

(٦) الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات القرآن**، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، 1972، بيروت، ص242.

(٧) ابن منظور الإفريقي المصري، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ج7، ص 220.

(٨) **سورة الأعراف**، الآية: 189.

(٩) إبراهيم يوسف، **إشكالية العمران والمشروع الإسلامي**، مطبعة أبو داود، الجزائر، 1992، ص 160.

(١٠) إسماعيل عبد الرحمن النور، **مجتمعات الاشتراكية الطبيعية**، أوربوتال للنشر والطباعة والتوزيع، مدريد، ط١، 1983، ص 150.

(١١) عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج6، مطبوعات لبنان، 1971، ص 450 – 451.

(١٢) محمد رياض، **دراسة في النوع والحضارة**، مرجع سابق، ص 331.

(١٣) **سورة النحل**، الآية: ٨٠.

(١٤) أندريه إيمار، جانين أو بوابه، **تاريخ الحضارات العام (الشرق واليونان القديمة)**، ترجمة: فريدم وآخرون، منشورات عويدات، بيروت – باريس، ص 113.

(١٥) محمد محفل، **تاريخ العمارة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م، ص 141.

(١٦) **سورة الأعراف**، الآية 73.

(١٧) عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ص 396.

(١٨) عبد الرحمن بن خلدون، ص 397.

(١٩) محمد حسين جودي، **العمارة العربية الإسلامية**، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط1، سنة 1998، ص 66.

(20) Mohamed Dib, Tlemcen ou les lieux d'écritures, Edition Revue .... Paris..., 1994, p 47.

(٢١) محمد حسين جودي، المرجع السابق، ص 68.

(٢٢) محمد حسين جودي، المرجع السابق، ص 68.

(23) Yves Korbendau, L'architecteur sacrée de l'Islam, ACR édition internationale courbevoire (Paris), 1997, p. 78.

(٢٤) بريشي درويش: **تطور المسكن الإسلامي في مدينة تلمسان**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، فنون شعبية، تلمسان، 2011 – 2012م، ص69.